تشخيص العلامة عبد الحميد بن باديس لحال المجتمع الجزائري في العهد الاستعماري

أ.د عمار جيدل

جامعة الجزائر

احتفلت فرنسا بالذكرى المئوية لاستعمار الجزائر،وكان الاحتفال بمثابة إعلان موت الأمة الجزائرية،في مثل ذلك الجو،أعلن عبد الحميد بن باديس(1889-1940م)-مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين-الحرب على فرنسا الاستعمارية،تأسيسا للاستقلال الحقيقي،وفق تشخيص خاص،حتى قال رفيق دربه العلامة محمد البشير الإبراهيمي(1889-1965م)"لو تأخّر ظهور جمعية العلماء عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا"([1])،و تؤكد شهادة الأستاذ الرئيس ما للعالم الاستدماري من أثر وخيم على اللغة العربية في الأمة.

فما هو الخلل الذي طرأ على الأمة الإسلامية في الجزائر؟ وما هي طبيعته؟

يرى ابن باديس أن القرآن الكريم مازال بين ظاهراني المتعبدين،ولكنه قليل الأثر في حياتهم الاجتماعية والتربوية والفكرية،بل وحتى الدينية نفسها،لهذا تلخّصت المشكلة حسب تقديره في: التحوّل عن أصل ما جعل له القرآن الكريم

---

[1] /مجلة –مجمع اللغة العربية- القاهرة العدد21/سنة 1966ص143

أولا: التحوّل عن أصل ما جعل له القرآن الكريم:

لا يقتضي التشخيص العام الوقوف التفصيلي عند أسبابه ومظاهر الخلل فيه،بل تكفينا الإشارة إلى مجمل ما يعبّر بمجموعه عن الخلل الطارئ على الأمة.

تتلخّص الأزمة في رأي العلامة ابن باديس في تحوّل المسلمين عن أصل ما جعل له القرآن الكريم ،فصار لا يقرأ للفهم،لأنه لا صلة له بالحياة و النهضة والمدنية والعمران، وفق الرأي الشائع في المجتمع، و مفاد هذا المسلك أن الإسلام ليس نصا مستقلا متميّزا،بل هو سيرة المجموع والأفراد،وقد بقيت تلك المفاهيم شائعة،بل ورائجة على المستويين الرسمي والشعبي إلى يوم الناس هذا،فورثنا في حياتنا الاجتماعية كثيرا من العبارات الدالة بنفسها على تبني هذا الطرح،كقول بعضهم "نحن مسلمون منذ القدم"، "و ممارستنا للإسلام يجب أن لا يطرأ عليها أي تغيير"،"و لا نحتاج من يعلّمنا ديننا"،... ونحو ذلك من العبارات التي لم يع أصحابها حقيقتها،لأنهم لو وعوها لعلموا أنهم يخالفون بدائه الأشياء...لأنهم بهذا قد حكموا بأن الممارسات الشعبية ناسخة لكتاب الله وسنة نبيه،ولكان تعاملهم مع المجتمع أسوء من تعاملهم مع عالم الأشياء،لأنهم يقولون بمقالهم وحالهم أن عالم الأشياء بحاجة مستمرة للصيانة ومراقبة درجة توافقه مع أصل ما جعل له،فكيف نقبل هذا المنطق في عالم الأشياء ونرفضه في عالم أكثر تعقيدا يحتاج إلى الحضور النفسي والمعرفي الدائم،نظرا لوقوع نفوس البشر تحت طائلة التحريف بالترغيب والترهيب والإغراء،و...؟وكانت هذه الممارسات سببا في شيوع التقليد المشجّع من قبل الاستعمار، بتجهيل الشعب لغته أو بتكريس الغلبة الواقعية للفكر المماليء للاستعمار.

من هذا المنطلق فإن المسلمين في أمس الحاجة لمراجعة دينهم من جهة

وتديّنهم من جهة أخرى،وخاصة من جانب مراقبة درجة تمثّل الدين في الحياة بصفة عامة،و بهذه الخلفية نكون في حاجة ملحّة لتنمية القدرات الإيمانية والمعرفية و لا يتأتى لنا التفكير في ذلك ما لم نلاحظ الفرق بين تمثّلاتها العملية للفكرة الإسلامية من جهة وأصل مضامين الفكرة نفسها من حيث هي من جهة أخرى.

يعرض ابن باديس لتجاوز هذا الخلل مجموعة متناغمة من المقترحات والحلول،نوجزها فيما يأتي:

1 /تجاوز التقليد بالتأصيل من خلال دعوة المسلمين إلى تجسيد مجموعة من الشروط المعرفية والنفسية لتكريس الحل المنشود:

*/ يجب أن يعلم الناس أن الإسلام إنما هو في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم([2])، لهذا كانا مصدرين مهمين في الاستدراك على جهود المتقدمين والمتأخرين و تقويمها إن في مواضيع منتجاتهم الفكرية أو مناهج تناولها بصورتيها العامة والخاصة،بمعنى أنّ من خالف طبيعة النصوص الإسلامية في مضمونها الجزئي أو شموليتها- بعرض القضايا في قالب جزئي- يضيّع الحقيقة الإسلامية،و لهذا لا يمكن أن يعتد بقوله منهجيا وموضوعيا.

وإذا لم يكن للمسلم انتسابا أو امتثالا الحق في تجاوز هذين الأصلين،فمن نافلة القول التأكيد على أنّه لا يحق موضوعيا ومنهجيا -فضلا عن أنه من أبجديات الأدب الإنساني-،أن يفتي غير الملتزم بالإسلام تدينا لله تعالى،فضلا عن خوض غير المسلمين في شأن كيفية تديّن المسلمين،لأنها لا تختلف بالنظر إلى المآل عن تكريس تقليد جديد يريد القوي فرضه على الضعفاء.

---

[2]/ من مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

*/الإسلام إنما جعل لهداية البشرية وليس من قبيل الأفكار التي تحشى بها الرؤوس للتباهي والاستعراض،يؤكد هذا المعنى البند الأول في مواثيق جمعية العلماء،" الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده،و أرسل به جميع رسله،وكمّله على يد نبيه محمد(الذي لا نبي بعده)"

*/تربية المجتمع الإسلامي الجزائري لا يمكن أن تتم وتحقق المقصود إلا إذا كانت وفق ما ورد في مصادر دينه،وكل محاولة لتربيتها بما يخالفه يعد جناية في حقها،لهذا لا يمكن تهذيبها بغير طريق الإسلام.

*/تكريس المنهج النقدي في التعامل مع المجتمع،لأن النقد أساس الاستدراك المعرفي والاجتماعي،و ينبّه ابن باديس في هذا السياق إلى ضرورة ملازمة الأدب و حقوق الأخوة أثناء ممارسة العمل النقدي، خوفا من أن يفهم منه غير ما قصد منه،يوضّح هذه الفكرة قوله في سياق تقويم أعمال الجمعية بعد عامها الأول،يقول الشيخ:" لا يكون الإصلاح إلا بالانتقاد، فذلك وجدنا أنفسنا في خطتنا مضطرين إليه،وقد كانت منا انتقادات سياسية و اجتماعية وأدبية ودينية ...إلى أن يقول:"إننا نصرح أمام الله والناس أن هؤلاء القوم (المنتقدين)إخواننا في الدين والوطن، نحب لهم ما نحب لأنفسنا، ونكره لهم ما نكره لها،وإننا إذا قلنا كلمة الحق فإننا نقولها على وجه النصح الذي فرضه الله على المسلمين،غير رازين عليهم في شخصياتهم و لا قادحين في شأن من شؤونهم الخاصة (لأن الإنسان إنما هو بها إنسان.)

ا/ الفكر:

كان الإنسان وما يزال سيد الكون بفكره،وأساس النهضة كما يقول ابن باديس هو التفكير المتجدد، لهذا يمجّد الإسلام العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها

على التفكير، وينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل و الإكراه،و يستشهد لهذا بطلب الدليل ممن يدّعي قولا أو رأيا معيّنا،فقد ورد في القرآن الكريم في مقام الرد على المدّعين بأنه لا يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى فقال تعالى" قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"(البقرة111)، ولكنه في ذات الوقت يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون.

ب/ الغرائز:

ترتبط نهضة الإنسان بنهضة غرائزه بمقاومة ما فيه من أصول شر، وإنماء ما فيه من أصول خير،و لاشك أن القرءان أهم معلّم أخلاقي عظيم، فقد تضمنت آياته ذكر أصول الخير وما ينميها، وذكر أصول الشر وما يميتها وينجيها، وكل ما يزكي النفس وما يدسيها، ببيان منافع طريقة تلك لتركب، ومضار طرائق هذه لتجتنب.

د/ الأعمال :

مبنى الأعمال على الفكر و الغرائز و العقائد،فإذا استقامت استقامت أعماله، وإذا عوجت عادت عليها بالاعوجاج...وبهذا يظهر أن القرآن الكريم كفيل بنهضة الإنسان نهضة حقيقية تبلغ به إلى بقاع السيادة والكمال"([3])

2/البرهان العملي:

وأكبر شاهد عملي على صحة ما ذهب إليه، تحويل القرآن الكريم لأمة كانت منحطّة في أفكارها، لا تعرف من الكون إلا البقعة التي تقلها من الغبراء، والرقعة التي تظلها من الجرداء، ولا من العلم إلا ما يناسب أميتها وبداوتها،منحطة في

3/آثار عبد الحميد ابن باديس 49/4

غرائزها،تعيش على النهب والسفك والخمر والميسر وما إليها، منحطة في عقائدها ...منحطة في أعمالها...فجاءها رجل منها منشئا ومنسبا ولكنه فوق جميع الخلق عقلا وعلما وأدبا، ...فأخرجها من ظلمة الجمود إلى نور التفكير ومن ظلمة الوحشية إلى نور المدنية الراقية، ومن ظلمة الشرك إلى نور التوحيد ومن ظلمة الفوضى إلى نور القانون؛ فلم تطو تلك الأمة عصر الصحابة حتى سادت العالم ديانة برهانية وملكا عادلا؛و لم تطو عصر اتباع التابعين حتى سادته مدنية راقية وعلما زاهرا.

فكتاب نهض بتلك الأمة –وتلك حالها–هو هو والله الذي لا تكون لنا نهضة دينية إلا به، وهنا تم على ذلك البرهان العملي.

آليات التجسيد:

ترجع مجموع المقترحات إلى تحسين الأداء في مستويين،أول هذه الآلية الإصلاح المعرفي و الفكري،والثاني إصلاح على مستوى تمثّل المضامين الاجتماعية والحضارية للدين.

1/ تقوم جهودهم على تشجيع الفكر النقدي،و عدم التسليم بالتسليم بوصفه آلية مهمة للتمييز بين الموجود والمطلوب،الموجود على مستوى التديّن–بجميع مضامينه– و وسيلة فعّالة لشحذ الهمم وتجسيد حركية الفكرة الإسلامية وما تفرضه من تنمية القدرات المعرفية والنفسية والحضارية، ذلك أنّ تجسيد الفكرة على مستوى الذات يفرض مراقبة دائمة للنفس على مستوياتها المختلفة–معرفيا واجتماعيا–مما يحرّرها ولو وقتيا من الوقوع تحت طائلة التسليم الذي هو أساس القضاء على حركية الفكرة على المستويين الاجتماعي والفكري المعرفي، ولكن

ينبغي أن تكون العملية النقدية في إطار مقاصد وضوابط أخلاقية تخرج الناقد والمنقود من دائرة الاستعراض والعبثية إلى الهدائية المتوخاة من الدين.

يفرض التمكّن من آليات المراجعة وتنمية القدرات النقدية، توفّر مجموعة من الشروط ، نلخّصها فيما يأتي:

1/اللغة العربية:

التمكين للغة العربية في المجتمع الجزائري،لأن تعلّم الإسلام وتصحيح موقفنا منه،يفرض تعلّم العربية،ذلك أن هذا الدين العالي لا يفهمه الجزائريون إلا بفهم لسانه العربي الذي هو لسانهم القومي والديني بدون استثناء، فمن الضروري لتهذيبهم وترقيتهم و أنسنة تصرفاتهم أن يتعلموا هذا اللسان، ليس هذا فحسب بل هو الذي يحثّهم على تغذية عقولهم بلبان العلوم و المعارف على اختلاف أصنافها وأنواعها، وهو الذي يوسّع نظرهم في الأخوة الإنسانية حتى يقول لهم أن من قتل نفسا بغير نفس أو بغير فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

2/العيش بالإسلام للإسلام:

يربط الشيخ عبد الحميد بن باديس العيش للإسلام بالعيش لإسعاد الإنسانية،فضلا عن المساهمة في سعادة بني دينه، فيذكر معقبا على أولئك الذين اعتبروا هذا الرأي ضيق أفق وتعصّب، متحججين بقولهم أنّ ليس الإسلام وحده دينا للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان،فيقول الشيخ:" نعم إن خدمة الإنسانية ...واحترامها ...هو ما نقصده ونرمي إليه، نعمل على تربيتنا ... ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة،فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة

ولإيصال هذا النفع...ثم يقول" ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول: ولقد كرّمنا بني آدم"، ويقرر التساوي والأخوة بين بني جميع تلك الأجناس، ويبيّن أنهم كانوا أجناسا للتمييز لا للتفضيل وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط،فيقول:" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

ولاشك أن النصوص القرآنية هي مربط كل تلك الشواهد، لهذا انتهى الشيخ إلى أن العيش للإنسانية لا يتم إلا بالعيش للإسلام، يؤكد هذه الفكرة قوله:" فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا الإسلام-وهو الدين الذي فطرنا عليه الله- علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به،إن خدمتنا لا تكون إلا على أصوله، و إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها، في جميع أجناسها وأوطانها...فهذا معنى أعيش للإسلام)"...

والعيش للإسلام في فكر ابن باديس مظهر من مظاهر الالتزام بهدائية الإسلام المتجلية في شقين نظري وعملي .

مظاهر الهدائية:

التصور النظري:

1/العيش بالإسلام في شموله،فالإسلام ليس بضاعة نتخيـــّر منها ما نشاء، وليس جزئية منفصلة عن ميادين الحياة كلها، فليس سياسة فقط ولا ذكرا فحسب ولا طلبا للآخرة فقط ، أو استسلاما لمطالب الدنيا.

2/مناقشة أفكار اللحظة التاريخية والابتعاد عن القضايا الميّتة المميتة.

3/صياغة الخطاب وتأثرها بالمعطى الثقافي والسياسي، سواء بالنظر إلى المضمون أو المناهج الموظّفة في صياغته.

4/العيش بالفكرة الإسلامية بمدلولها الحضاري غير المقيّد بالمنتج الثقافي الإسلامي المقّيد بفعل الزمان والمكان من حيث كونه منهجا في الفهم والتمثّل، لا من حيث كونه فهما ونسقا جامدا لا يمكن تجاوزه.

5/المراجعة والاستدراك العملي لفهم الناس للدين.

6 /مواجهة التقليد بالتأصيل في أدب جم

2/التمثّل العملي لهدائية الإسلام .

1/ عملية المسعى:

الهدائية ليست كلاما يلاك ثم يرمى أو شعارات يتغنى بها أو نياشين تعلّق، أو آليات للاستعراض، إنها برنامج حياة يجسّد في كل مظاهر الحياة بجميع مضامينها الاجتماعية والفكرية والحضارية و...لهذا حمل ابن باديس على المظاهر الدالة على نقيض القصد المدعى بالمقال أو بالحال...

1/ لا يستساغ ادعاء الهدائية من من إذا خطب في شأنها كان خطيبا مفوّها ولكنه يسهم في كم الأفواه التي تذكرها أو تذكّر بها.

2/يضن بعضنا أن الهداية في حاجة إلى أن تلبس الحلل الضافية من نسج أقلامنا، و حذلقات ألسنتنا، بينما لا ننيلها خرقة بالية من صنع أيدينا، و هذا مما تأباه الهداية نفسها، لأنها من حيث هي، لا تقبل كلاما لا شاهد عليه من الأفعال،إنها تأبى أن نأخذ الحق من فلان و ليكن عز الدين ليعطى لعبد آخر من عباد الله.

3/الهداية ترى في تصرفاتنا الاجتماعية،يرى أثرها في أكواخ الفقراء و المساكين من المستضعفين، ذلك أن ضياع الهداية في هذا الجانب يجعل الدنيا دائرة على المنافع التي تعد وحشا رهيبا، لهذا كان التودد إلى أصحابها كالتودد إلى وحش جائع لا يزيده التودد عطفا بل يثير شهوته، ثم يعود ويطلب أجرة أنيابه وأظفاره([4])

4/الهداية لها مظاهرها في السياسة والحكم، بل تسهم في تحرير أصحاب الجاه والسلطان من قيد الأطماع، لأنها ستكون سببا في تحريرهم ودفعهم للمساهمة في تحرير الآخرين.

5/الهداية هي الروح السارية في عالم الأفعال الاجتماعية ،فتخرجها من دائرة العبثية إلى الغائية و المقصدية المندرجة في إطار نسق متكامل شامل لجميع مظاهر الحياة، إنها إن مكّنت من النفس أكسبت الفعل البشري إنسانية منظورة في جميع مشمولات أفعاله.

6/ يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان." قال تعالى " و لقد كرمّنا بني آدم"(الإسراء 70)، لأننا إذا نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية([5])

ج/ يفرض العدل فرضا تاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز، ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق،فيقول:" و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا" ويحرم

---

[4]/رسائل النور 582/1

[5]/آثار ابن باديس 110/4

الاعتداء تحريما عاما على البغيض و الحبيب، ويأمر بالإحسان" إن الله يأمر بالعدل والإحسان"،" و قولوا للناس حسنا([6])

د/يدعو إلى الإحسان العام، ويحرم الظلم بجميع وجوهه، وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس. قال تعالى:"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرّمنّكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب إلى التقوى واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون"(المائدة6)

/*شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل الزكاة و الصدقات وأصناف عديدة من العلاقات التعاونية بين الفقراء والأغنياء ، فكان منها القراض والمزارعة والمغارسة، مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي و الأموال.

/*يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاجز، ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر، ويغاث الملهوف، وينصر المظلوم، ويؤخذ على يد الظالم، ويحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه، يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس.

---

[6]/ آثار ابن باديس 112/4

وبهذا الصدد ورد عنه في قراءة خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، التي قال فيها " أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، ولئن رأيتموني على باطل فسدّدوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم" استنبط منها مجموعة من الأصول يمكن أن نختصرها فيما يأتي:

1/ الأمة هي صاحبة الحق و السلطة في الولاية والعزل"وليت عليكم " أي باختيار الأمة ورضاها.

2/ يتولى أمر الأمة أكفؤها لا خيرها سلوكا" لست بخيركم"

3/ الخيرية في الأمة تنال بالسلوك وأعمال الخير لا بالمنصب " لست بخيركم"

4/ حق الأمة في مراقبة أولي الأمر، لأنها مصدر سلطتهم، وصاحبة النظر في ولايتهم وجودا وعدما.

5/ حق الوالي على الأمة بذل النصح له ومعاونته إذا رأت استقامته،فهي شريكة معه في المسؤولية " إذا رأيتموني على حق فأعينوني"، وتقويمه على فساده" وإن رأيتموني على باطل فسدّدوني"

6/ من تولى أمرا من أمور المسلمين يجب عليه أن يبيّن لهم الخطة التي تسير عليها، ليكونوا على بصيرة من أمرهم" أطيعوني ما أطعت الله فيكم"

7/ لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي ارتضته لنفسها،وعرفت فائدتها،وما الولاة إلى منفذون لإرادتها، فهي تطيع القانون لأنه قانونها." أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم"

8/ الناس أمام القانون سواء، لا فرق بين قوي وضعيف أو غني وفقير..فلا يضيع حق ضعيف و لا يذهب حق قوي،مع حفظ التوازن بين الطبقات بصون الحقوق" ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ
الحق له،وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه"

9/ الراعي والرعية لهما مسؤولية مشتركة في صلاح المجتمع أو فساده

تلك هي الخلال التي جاء بها الإسلام وطبّقها سلفنا الصالح رضي الله عنه